لُعْبَة مُميتَة

مَجْموعَة «رَغَبات قاتِلَة»

تأليف: د. سلمى عطا الله
رسم: إبراهيم رمضان

«هَيّا، هَيّا، سَأُصِلُ سَأُحَقِّقُ الهَدَف... هَيّا لا تَسْتَسْلِمْ يا رَيان!».

وتَتَيَبَّسُ يَداهُ عَلى تِلْكَ الأزْرارِ البارِدَةِ الصَّمّاء، وتَتَسَمَّرُ

عَيْناهُ عَلى تِلْكَ الأجْسامِ أمامَه، وتَبْتَلِعُهُ الشّاشَةُ الصَّغيرَةُ أكْثَرَ فَأكْثَر، فَيَغيبُ في عالَمِ لُعْبَتِهِ الإلِكْترونِيَّة، ويَرْحَلُ عَنِ الحَياةِ مِنْ حَوْلِه.

ويُناديهِ صَوْتٌ مِنْ مَكانٍ لَيْسَ بِبَعيدٍ، لكِنَّهُ لا يَلْقى جَوابًا، ولا يَحْظى بِمُجيبٍ. ويَعْلو الصَّوْتُ أكْثَر، ويَخْنُقُهُ الوَجَعُ أكْثَر: «يا رَيان، أيْنَ أنْتَ؟».

ويَتَكَرَّرُ الصَّوْت، ويُنادي المُسْتَغيثُ مِنْ جَديدٍ، ويُكَرِّرُ نِداءاتِهِ الَّتي امْتَزَجَتْ بِأَلَمٍ وأنينٍ: «يا رَيان اتَّصِلْ بِوالِدِكَ أوْ بِسَيّارَةِ إسْعافٍ، أشْعُرُ بِأَنّني سَأموتُ، الوَجَعُ يَكادُ يَقْتُلُني!».

لَكِن، ما مِنْ مُجيبٍ أوْ مُغيثٍ!

وبِغَريزَةِ البَقاءِ والتَّمَسُّكِ بِالحَياة، جَرَّتْ «ميرا» جَسَدَها المُمَزَّقَ وَجَعًا، عَلَّها تَصِلُ إلى تِلْكَ الطّاوِلَةِ الصَّغيرَةِ في زاوِيَةِ غُرْفَتِها، حَيْثُ وَضَعَتْ هاتِفَها المَحْمول. لَقَدْ تَيَقَّنَتْ أنَّ مُحاوَلَتَها هَذِهِ هِيَ فُرْصَتُها الوَحيدَةُ الَّتي قَدْ تُنْقِذُها مِنْ نَوْبَةِ الأَلَمِ الَّتي أَلَّمَتْ بِها اليَوْم، بَعْدَ أنْ يَئِسَتْ

مِنْ أنْ يَسْمَعَها ابْنُها «رَيان» ويَسْتَجيبَ لِنِدائِها. وبِجُهْدٍ جَهيدٍ وَصَلَتْ إلى الهاتِف، حاوَلَتِ الضَّغْطَ عَلى بَعْضِ أرْقامِه، لَكِنَّها...

«لَقَدْ أخَفْتِني يا ميرا. لِلَحَظاتٍ، ظَنَنْتُ أنَّني لَنْ أسْتَطيعَ إنْقاذَكِ!».

– لَمْ أعُدْ أذْكُرُ ما حَصَل.

– اتَّصَلْتِ بي، وما كِدْتِ تَذْكُرينَ اسْمي حَتّى صَرَخْتِ صَوْتًا يَعْتَصِرُهُ الألَم، وما عُدْتِ تَتَكَلَّمين. نادَيْتُكِ كَثيرًا

لَكِنَّكِ ما رَدَدْتِ عَلَيّ... حاوَلْتُ الاتِّصالَ عَبْرَ هاتِفِ البَيْتِ الثّابِت، عَلَّني أفْهَمُ مِنْ «رَيان» ما حَصَل، لَكِنَّهُ لَمْ يَرُدّ عَلَيّ. عِنْدَها، تَرَكْتُ المَكْتَبَ وانْطَلَقْتُ مُسْرِعًا إلى البَيْت، فَوَجَدْتُكِ مُمَدَّدَةً عَلى الأرْض، و... في كُلِّ حالٍ، لَقَدْ أنْقَذْناكِ في اللَّحَظاتِ الأخيرَة! إنَّها الزّائِدَةُ يا «ميرا»، لَوِ انْفَجَرَتْ كُلُّها لَكانَ الأمْرُ خَطِرًا...

– نَعَم، إنَّ الأمْرَ عَبَرَ بِخَيْرٍ وسَلامٍ. لَيْتَني مُتُّ يا «فَريد»! لَنْ أحْتَمِلَ حَياةً ابْني فيها حَيٌّ مَيِّتٌ! أيُعْقَلُ أنْ يَكونَ في البَيْتِ ولا يَسْمَعُ صُراخي، ولا يَعي حَتّى ما حَصَل؟! بِمَ يَنْفَعُني إنْقاذُ جَسَدي، وجَسَدُ ابْني يَذوبُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا أمامَ تِلْكَ الشّاشاتِ اللَّعينَة؟!

– نَعَم، هُوَ يَعيشُ مَعَنا ولا يَعيش! إنَّ الأمْرَ ما عادَ يُطاق، وأنا مُصِرٌّ هَذِهِ المَرَّةَ عَلى أنْ أضَعَ حَدًّا نِهائِيًّا لِهَوَسِه.

«ما الَّذي أصابَكِ أيَّتُها الآلَةُ اللَّعينَة؟ أنا لَمْ أُنْهِ اللُّعْبَةَ بَعْد!».

وانْتَفَضَ «رَيان» عَنْ كُرْسِيِّه، وراحَ كَمَنْ مُسَّ بِجُنونٍ يَكْسِرُ كُلَّ ما وَقَعَتْ عَلَيْهِ يَدُه، يَصْرُخ، يَلْعَن، يَبْتَعِدُ مِنَ الـ«كُمْبيوتر»، ثُمَّ يَقْتَرِبُ مِنْه، يَهُزُّهُ، يُحَرِّكُ شَرائِطَه، يُطْفِئُه، ثُمَّ يُديرُه، ثُمَّ يَعودُ إلى الصُّراخِ والجُنون، حَتّى يَنْتَهِيَ بِهِ الأمْرُ مُمَدَّدًا عَلى سَريرِه، وفي يَدَيْهِ هاتِفُهُ المَحْمول!

كانَ «فَريد» عائِدًا مِنَ المُسْتَشْفى إلى بَيْتِه، تَتَنازَعُهُ

الهَواجِسُ والهُموم، يَسْتَعيدُ بَعْضَ المَشاهِدِ الَّتي طالَما أرَّقَتْه، والَّتي ما عَرَفَ لَها حَلًّا. ثُمَّ يَقولُ عَلى وَقْعِ الحَرْقَةِ والأسى: «لَقَدِ اسْتَنْفَدْتُ السُّبُلَ كُلَّها! ماذا تُرايَ أفْعَلُ بَعْدُ كَيْ أُنْقِذَكَ يا رَيان؟».

أضاءَتِ الإشارَةُ الخَضْراءُ عِنْدَ مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ الأخيرِ في المَدينَة، لَكِنَّ «فَريد» لَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ مَكانِه، فَقَدْ حَجَبَتِ الدُّموعُ الَّتي اغْرَوْرَقَتْ في عَيْنَيْهِ ضَوْءَ الإشارَة. وعَلى وَقْعِ الأبْواقِ الَّتي تَعالَتْ خَلْفَه، عادَ وأكْمَلَ مِشْوارَهُ نَحْوَ البَيْتِ ونَحْوَ لَحَظاتٍ ماضِيَةٍ عَبَرَتْ وخَطَّتْ بِوَجَعِها أيّامًا، كَمْ تَمَنّى لَوْ أنَّها ما كانَت، ما اسْتَمَرَّت...

«حَضْرَةَ الطَّبيب، هَلْ حَقًّا يُفيدُهُ الـ«لِّيْزِر» ويُنْقِذُ عَيْنَيْه؟».

– طالَما أنَّنا لَمْ نُلْغِ السَّبَب، فَالمُشْكِلَةُ سَتَعود. عَلَيْكَ أنْ تَضَعَ حَدًّا لِجَلَساتِهِ أمامَ الشّاشَة، والَّتي فاقَتْ بِطولِها الحَدَّ والمَعْقول!

مُنْذُ ذَلِكَ الزَّمَنِ البَعيد، مُنْذُ كانَ «رَيان» عَلى أبْوابِ عُمْرِ المُراهَقَة، و«فَريد» و«ميرا» يُجاهِدانِ بِصَبْرٍ ولَجاجَةٍ في إبْعادِ وَلَدِهِما مِنْ هَذِهِ الألْعابِ الإلِكْترونِيَّة، إلّا أنَّهُما ما نَجَحا يَوْمًا في تَحْقيقِ مُرادِهِما. فَـ«رَيان» صارَ مُهَوَّسًا بِهَذِهِ الألْعاب، مُدْمِنًا عَلَيْها، مُشَكِّلًا بِها عالَمَهُ الخاصّ، مُبْتَعِدًا مِنْ أشْكالِ الوُجودِ كُلِّها. لَقَدِ اسْتَحْوَذَتْ عَلى

تَفْكيرِهِ ومُيولِهِ ورَغَباتِه، فَأضْحى أسيرًا لَها، وابْتَعَدَ عَنْ وُجوهِ الحَياةِ الاجْتِماعِيَّةِ كُلِّها مَعَ رِفاقِه، وحَتّى مَعَ أهْلِهِ في البَيْت.

كانَ يُمْضي ساعاتٍ طَويلَةً أمامَ الـ«كُمْبيوتِرِ» أوِ الهاتِفِ

المَحْمول، لا يَكادُ يُنْهي لُعْبَةً حَتّى يَبْدَأَ بِثانِيَةٍ. فَشَغَفُهُ بِهَذِهِ الأَلْعابِ جَعَلَهُ لَصيقًا بِآلاتِها، يَنْقُلُها مَعَهُ أَيْنَما حَلَّ أَوْ جَلَس؛ في المَطْبَخ، في الحَمّام، في الشُّرْفَةِ أَوْ في غُرْفَةِ الجُلوس، حَتّى في السَّيّارَةِ أَوْ في زِيارَةٍ... حَتّى باتَ مِنْ غَيْرِ المَأْلوفِ أَنْ تَراهُ مِنْ دونِها!

«إِنْ لَمْ تَكُنْ أَمامَ الكُمْبيوترِ فَأَنْتَ حَتْمًا أَمامَ الهاتِفِ المَحْمول!».

لَمْ يَرُدّ «رَيان»، بَلْ ظَلَّ مَسْبِيًّا بِما يَراهُ أَمامَه. عاوَدَ أَبوهُ الكَلامَ مَعَهُ مِنْ جَديدٍ: «هَلْ عَلِمْتَ ماذا فَعَلْتَ اليَوْمَ يا رَيان؟».

لَكِنَّ «رَيان» لَمْ يَرُدّ أَيْضًا. عِنْدَها، اقْتَرَبَ «فَريد» مِنْهُ وقَدْ زَلْزَلَ الجُنونُ كِيانَه. أَخَذَ مِنْهُ الهاتِفَ بِغَضَبٍ ورَماهُ عَلى الحائِطِ قُبالَتَه، فَتَناثَرَ حُطامًا وأَجْزاءً أَجْزاءً... ما حَصَلَ جَعَلَ «رَيان» يَقْفِزُ مِنْ مَكانِهِ فاقِدًا صَوابَه، يَرْبُضُ عَلى الأَرْضِ قُرْبَ أَشْلاءِ هاتِفِهِ مُحاوِلًا جَمْعَها وكَأَنَّها بَقايا الرّوحِ يَسْتَجْمِعُها لِيَسْتَعيدَ بَعْضَ حَياةٍ!

دَنا أَبوهُ مِنْهُ مِنْ جَديدٍ، أَمْسَكَهُ بِكَتِفَيْهِ ورَفَعَهُ عَنِ الأَرْض، وهُوَ يَقولُ لَه: «لَيْتَكَ خِفْتَ عَلى أُمِّكَ كَما تَخافُ عَلى هاتِفِكَ اللَّعين!».

فَأجابَهُ «رَيان» بِعَيْنَيْنِ فارِغَتَيْن: «وما بِها أُمّي؟! ولِمَ عَلَيَّ أنْ أخافَ عَلَيْها؟».

– لَقَدْ نادَتْكَ مِرارًا وتِكْرارًا كَيْ تَتَّصِلْ بِإسْعافٍ أوْ طَبيبٍ، لكِنَّكَ ما اكْتَرَثْتَ لِنِداءاتِها، حَتّى سَقَطَتْ أرْضًا فاقِدَةً الوَعْيَ بَعْدَ أنِ انْفَجَرَ جُزْءٌ مِنَ الزّائِدَةِ في بَطْنِها! ولَوْلا لُطْفُ الرَّحْمنِ لَكُنّا خَسِرْناها...

– لَمْ أسْمَعْها تُناديني.

– كَيْفَ لَمْ تَسْمَعْها، وأنْتَ لا تَبْعُدُ مِنْها إلّا أمْتارًا؟ هَلْ غَلَبَ ضَجيجُ ألْعابِكَ صَوْتَ الضَّميرِ عِنْدَكَ؟ هَلْ تَجَمَّدَ الحِسُّ فيكَ فَصِرْتَ بِبُرودَةِ آلاتِكَ؟! اِسْمَع، أنا لَنْ أُصْلِحَ لَكَ الهاتِف، ولَنْ أسْمَحَ لَكَ بِأنْ تُصْلِحَهُ بِنَفْسِكَ.

– ماذا؟ لا يُمْكِنُكَ أنْ تَفْعَلَ بي هَذا، الـ«كُمْبيوتر» قَدْ تَعَطَّلَ أيْضًا!

– حَسَنًا، إذًا لَنْ أُصْلِحَ لَكَ الـ«كُمْبيوتر» أيْضًا!

– لا، أنْتَ تَعْرِفُ أنَّني لا أسْتَطيعُ البَقاءَ مِنْ دونِها! أتُريدُ أنْ تَقْتُلَني؟

– صَدِّقْني، أنْتَ لَنْ تَحْتاجَ إلى مَنْ يَقْتُلُكَ، فَقُعودُكَ أمامَ هَذِهِ الشّاشاتِ اللَّعينَةِ سَيَتَكَفَّلُ بِقَتْلِكَ. اُنْظُرْ إلى أكْوامِ الدِّهْنِ المُكَرْدَسَةِ في جَسَدِكَ المُتَرَهِّلِ الغارِقِ في دَوّامَةِ الجُلوسِ الطَّويل!

دَخَلَ «فَريد» غُرْفَتَهُ وانْطَرَحَ في فِراشِهِ يَسْتَريحُ بَعْدَ يَوْمٍ عَجَّ بِالمُفاجَآتِ والصِّعاب. لَكِنَّهُ عَبَثًا حاوَلَ الاسْتِراحَة؛ فَكَلِماتُ الغَضَب، والجُنون، وثَرْثَراتُ التَّذَمُّرِ والشَّكْوى الَّتي تَتَطايَرَتْ في أجْواءِ البَيْت، قَدْ حالَتْ مِنْ دونِ أيِّ فُرْصَةٍ في الرّاحَة.

وفي لَحَظاتٍ، كانَ بابُ البَيْتِ يُغْلَقُ بِقُوَّةٍ ارْتَجَّتْ لَها الأرْجاء، ما جَعَلَ «فَريد» يَقْفِزُ مِنْ مَكانَهِ يَسْتَطْلِعُ الأمْر. بَحَثَ عَنْ «رَيان» فَلَمْ يَجِدْه، فَتَيَقَّنَ أنَّهُ قَدْ غادَرَ البَيْت. فَعَدا خَلْفَهُ يُناديه. إلّا أنَّ «رَيان» لَمْ يَلْتَفِتْ إلى أبيه، ولَمْ يُعِرْهُ أيَّ اهْتِمامٍ!

وَقَفَ «فَريد» هُنَيْهَةً في مَكانِه، وهُوَ يُتَمْتِم: «حَتْمًا هُوَ سَيَعود. إلى أيْنَ سَيَذْهَبُ؟ هُوَ غاضِبٌ الآنَ عِنْدَما يَهْدَأُ سَيَعود!».

رَجِعَ «فَريد» إلى غُرْفَتِه، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ النَّوْمَ إلّا عِنْدَ ساعاتِ الفَجْرِ الأولى، بَعْدَ أنْ أمْضى مُعْظَمَ ساعاتِ

اللَّيْلِ يَروحُ ويَجيءُ إلى الشُّرْفَةِ المُطِلَّةِ عَلى الشّارِعِ يَتَأَمَّلُ أخْيِلَةَ المارَّةِ عَلى قِلَّتِهِم، عَلَّهُ يَلْمَحُ ابْنَهُ عائِدًا!

أمّا «رَيان» فَابْتَلَعَتْهُ ظُلْمَةُ بَعْضِ الأزِقَّةِ والطُّرُقات. كانَ يَسيرُ إلى حَيْثُ لا يَدْري، بِخُطُواتٍ تائِهَةٍ بَيْنَ التَّرَنُّحِ والانْفِجار، إلى أنْ وَصَلَ إلى شارِعِ المَدينَةِ الرَّئيس. حَرَكَةُ الشّارِعِ الصّاخِبَةُ حَتّى في ساعاتِ اللَّيْلِ المُتَأَخِّرَةِ أَلْهَتْ «رَيان» عَنْ ضَجيجٍ كانَ يَتَآكَلُ أحْشاءَه: «بِمَ أُزْعِجُهُ إذا كُنْتُ أُمْضي وَقْتي في مُمارَسَةِ الأَلْعابِ الإلِكْترونِيَّة؟ هُوَ لَمْ يَفْهَمْني يَوْمًا! أنا لَنْ أسْكُتَ عَمّا فَعَلَهُ بي! سَأَنْتَقِمُ مِنْه».

وَصَلَ حَتّى مُنْتَصَفِ الشّارِع، إذّاكَ انْفَرَجَتْ أساريرُه، ولاحَتْ عَلى مُحَيّاهُ بَسْمَةُ راحَةٍ وَرِضًى. تَذَكَّرَ أنَّ أحَدَ رِفاقِهِ القُدامى يَقْطُنُ في هَذا الشّارِع. تَذَكَّرَ قِصَّتَهُ وكَيْفَ طُرِدَ مِنَ المَدْرَسَةِ بِسَبَبِ كَسَلِهِ وإهْمالِهِ لِدُروسِه. فَازدادَ اطْمِئْنانُهُ وتَعَمَّقَتْ راحَتُه. هُوَ يَعْرِفُ جَيِّدًا سَبَبَ هَذا الإهْمالِ والكَسَل، هُوَ يَعْرِفُ جَيِّدًا أنَّ هَوَسَ هَذا الرَّفيقِ

القَديم بِالأَلْعابِ الإِلِكْترونِيَّةِ كانَ السَّبَبَ في طَرْدِهِ مِنَ المَدْرَسَة.

حَثَّ «رَيان» خُطاهُ نَحْوَ المَبْنى، وَراحَ يَصْعَدُ الدَّرَجَ نَحْوَ الطّابِقِ الثّالِثِ بِخَطَواتٍ سَريعَةٍ تَلْتَهِمُ الدَّرَجاتِ أمامَها. وفي لَحَظاتٍ، كانَ أمامَ بابِ شِقَّةِ رَفيقِهِ يَقْرَعُ البابَ بِجُنونٍ مُخيفٍ.

«كَيْفَ حالُكَ يا وَسيم؟ أتَتَذَكَّرُني؟».

– طَبْعًا، أنْتَ «رَيان» الوَلَدُ الَّذي...

– مَهْلَكَ، أَلَنْ تَدْعوني إلى الدُّخول؟

– بِالتَّأْكيد. تَفَضَّل.

ودَخَلَ «رَيان» وهُوَ يَقول: «أما زِلْتَ تَعيشُ وَحْدَكَ؟».

– نَعَم، فَوالِدايَ ما زالا يَعْمَلانِ في الخارِجِ ويُدَبِّرانِ أُمورَ إخْوَتي الصِّغار. لَكِن، قُلْ لي ما الَّذي ذَكَّرَكَ بي؟ ولِماذا جِئْتَ في هَذا الوَقْتِ مِنَ اللَّيْل؟

– أُمّي في المُسْتَشْفى. وأنا تَخاصَمْتُ مَعَ والِدي وتَرَكْتُ البَيْت.

– هَذا أمْرٌ طَبيعِيٌّ. إنَّ حالي لَيْسَتْ أفْضَلُ مِنْ حالِكَ، فَالهاتِفُ قَدْ تَعِبَ مِنْ خِصامي المُتَكَرِّرِ مَعَ والِدَيّ!

لَكِن، قُلْ لي ألَنْ تَعودَ أُمَّكَ في المُسْتَشْفى؟

– طَبْعًا، غَدًا صَباحًا.

– أهْلًا بِكَ يا «رَيان». البَيْتُ بَيْتُكَ، وهَذِهِ غُرْفَتُكَ. خُذْ راحتَكَ.

– وهَلْ فيها «كُمْبيوتر»؟

– طَبْعًا يا رَجُل. أيُعْقَلُ ألّا يَكونَ فيها «كُمْبيوتر»؟

لَمْ يَرُدّ «رَيان»، بَلِ اكْتَفى بِبَسْمَةٍ كانَتْ أكْثَرَ مِنْ عَلامَةِ رِضًى، وأصْدَقَ مِنْ إجابَةٍ. دَخَلَ الغُرْفَةَ، أغْلَقَ البابَ خَلْفَه، ثُمَّ أسْرَعَ إلى سِتارٍ نافِذَةٍ وَحيدَةٍ فيها، أغْلَقها بِإمْعانٍ، وهَرْوَلَ مُسْرِعًا نَحْوَ إحْدى الزَّوايا، حَيْثُ رَبَضَ الـ«كُمْبيوتر» عَلى طاوِلَةٍ صَغيرَةٍ. جَلَسَ عَلى الكُرْسِيِّ الدَّوّارِ قُرْبَها، وراحَ يَدورُ فيهِ دَوْراتٍ عِدَّةً، فيما هُوَ يَرْفَعُ

يَدَيْهِ ويُهْبِطُهُما وكَأَنَّهُ يَبْغي التَّعْبيرَ عَنْ فَوْزٍ أوِ انْتِصارٍ، ويَقول: «وأخيرًا، أنا وَحْدي هُنا، بَعيدًا مِنْ أيِّ تَأْنيبٍ أوْ إزْعاجٍ. هُنا، لَنْ يَحولَ عائِقٌ مِنْ دونِ تَحْقيقي مُبْتَغاي. لَنْ أرْحَلَ مِنْ هُنا قَبْلَ أنْ أرْوِيَ غَليلي، وأصِلَ إلى المَرْحَلَةِ النِّهائِيَّة».

وأطْلَقَ لِنَفْسِهِ العَنان. وبَدَأَ يَلْعَبُ ويَلْعَبُ وهُوَ قابِعٌ في كُرْسِيِّهِ مُتَسَمِّرًا أمامَ شاشَةِ الـ«كُمْبيوتر»، مُجَمِّدًا في جَسَدِهِ كُلَّ حَياةٍ، إلّا أنَّ غَليلَهُ لَمْ يَرْتَوِ ولَمْ تَعْرِفْ لُعْبَتُهُ مَحَطَّةَ وُصولٍ أوْ هِدْنَةَ راحَةٍ وسَلامٍ. فَظَلَّ يَلْعَبُ حَتّى وَصَلَ اللَّيْلَ بِالنَّهار.

اسْتَيْقَظَ «فَريد» صَباحًا، كانَ مُنْهَكَ القِوى مُحْبَطَ العَزيمَة، لكِنَّهُ مَعَ هَذا، تَوَجَّهَ مُسْرِعًا إلى غُرْفَةِ ابْنِهِ يُسابِقُ الأمَلَ في إيجادِهِ نائِمًا في سَريرِه. لكِنَّ الْواقِعَ كانَ عَكْسَ الأُمْنِياتِ والآمال، وَقَفَ عِنْدَ بابِ الغُرْفَةِ مَصْعوقًا مَذْهولًا، يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ يُعيدُ البَحْثَ في أرْجائِها بِعَيْنَيْنِ غَرِقَتا في قَلَقٍ وخَوْفٍ مَجْنونَيْن.

«أيْنَ هُوَ رَيان؟ أيُعْقَلُ أنَّهُ لَمْ يَعُدْ بَعْدُ إلى البَيْت؟! ماذا أقولُ لِـميرا المُلْقاةِ عَلى سَريرِ الألَمِ في المُسْتَشْفى؟».

عادَ إلى غُرْفَتِه، أمْسَكَ هاتِفَهُ المَحْمولَ بِيَدَيْنِ مُرْتَجِفَتَيْن. ومَعَ أنَّ الأرْقامَ الَّتي يَوَدُّ الضَّغْطَ عَلَيْها هِيَ أكْثَرُ مِنْ مَعْروفَةٍ بِالنِّسْبَةِ إلَيْه، إلّا أنَّهُ تاهَ عَنْها وأخْطَأَ فيها مَرّاتٍ عِدَّةً. وفيما هُوَ في لُجَّةِ ارْتِباكِه، تَذَكَّرَ ما حَصَلَ بِالأمْسِ وبِأنَّ هاتِفَ ابْنِهِ قَدْ تَحَطَّم.

هَرَعَ إلى الشُّرْفَةِ مِنْ جَديدٍ، مُرْسِلًا نَظَراتِهِ إلى الأُفُقِ البَعيد. نورُ الشَّمْسِ الَّتي اكْتَمَلَتْ في السَّماءِ رَسَمَ المَشْهَدَ أمامَهُ بِكُلِّ وُضوحٍ وجَلاءٍ. وَقَفَ حائِرًا لا يَدْري ما عَلَيْهِ أنْ يَفْعَل، مَشى يَمينًا ويَسارًا، ثُمَّ قال: «تُراهُ أمْضى اللَّيْلَ عِنْدَ أحَدِ رِفاقِه؟ سَأنْتَظِرُ بِضْعَ ساعاتٍ وبَعْدَها أبْدَأُ بِالاتِّصال».

كانَ «فَريد» جالِسًا عَلى الكُرْسِيِّ قُرْبَ «ميرا» يُحاوِلُ التَّصَرُّفَ بِشَكْلٍ طَبيعِيٍّ، فَيَتَفَقَّدُ المَصْلَ حينًا ثُمَّ السَّريرَ حينًا آخَر، إلّا أنَّهُ كانَ واجِمًا شارِدَ الفِكْرِ مُتْعَبَ القَسَمات. أمّا «ميرا»، فَعَلى الرَّغْمِ مِنْ وَجَعِها، لاحَظَتِ الدرْتِباكَ البادِيَ عَلى زَوْجِها، فَعاجَلَتْهُ بِالسُّؤال: «ما بِكَ يا فَريد؟ هَلْ أصابَكَ مَكْروهٌ؟ هَلْ هُناكَ ما تُخْفيهِ عَنّي؟ أيْنَ رَيان؟ لِمَ لَمْ تُحْضِرْهُ مَعَكَ؟».

ومَعَ أنَّ «فَريد» أصَرَّ عَلى النُّكْرانِ وعَلى خَلْقِ أعْذارٍ واهِيَةٍ، إلّا أنَّها لَمْ تُصَدِّقْه، فَامْتَزَجَ أَلَمُها بِهَواجِسَ ومَخاوِفَ لَمْ تَجِدْ لَها تَفْسيرًا، ولَمْ تَرْتَحْ مِنْها إلّا بَعْدَ جُرْعَةِ المُسَكِّنِ الَّتي أسْقَطَتْها فَريسَةَ غَفْوَةٍ هادِئَةٍ.

نَظَرَ «فَريد» إلى ساعَتِه، كانَتْ تُشيرُ إلى الثّانِيَةَ عَشْرَةَ ظُهْرًا. فَتَرَجَّعَ صَدى سُؤالٍ في داخِلِهِ ما هَدَأَ ولا اسْتَراح: «تُراهُ عاد؟».

اتَّصَلَ بِالمَنْزِل، فَلَمْ يَلْقَ رَدًّا أوْ جَوابًا. تَرَكَ غُرْفَةَ «ميرا»، وراحَ يَسيرُ في الرِّواقِ بِخُطًى مُوَقَّعَةٍ بِالفَزَعِ والدرْتِياب،

فيما هُوَ يُحاوِلُ الاتِّصالَ بِأحَدِ الرِّفاق: «مَرْحَبًا يا بَشير. هَلْ رَأَيْتَ رَيان اليَوْم؟».

ويَأْتيهِ الجَوابُ بِالنَّفي. ويَتَكَرَّرُ الاتِّصالُ مِنْ رَفيقٍ إلى آخَر، فيما الجَوابُ واحِدٌ ما تَبَدَّل: «لا يا عَمّ، أنا لَمْ أرَهُ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ».

عادَ إلى غُرْفَةِ «ميرا»، فَالأمْرُ ما عادَ يَحْتَمِلُ الدنْتِظار، وعَلَيْهِ إخْبارُها بِواقِعِ الحال. إلّا أنَّ «ميرا» كانَتْ لا تَزالُ تَغُطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ خَدَّرَتْهُ الأدْوِيَةُ ورَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِ الخالِقِ وَدَّتْ أنْ تُؤَجِّلَ لَها الخَبَرَ المُؤْلِم.

كانَ «فَريد» يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ في مَخْفَرِ الشُّرْطَة، يَروحُ ويَجيءُ مُتَعَثِّرًا بِأسْئِلَةٍ كَثيرَةٍ أسَرَتْ فِكْرَهُ وغَلَّفَتْ وِجْدانَهُ بِضَبابٍ كَثيفٍ.

«حَضْرَةَ الضّابِط، لَقَدْ خَرَجَ ابْني مِنَ البَيْتِ أمْسِ مَساءً ولَمْ يَعُدْ حَتّى الآن. وأنا لا أعْرِفُ مَكانَه».

– هَلِ اتَّصَلْتَ بِرِفاقِه؟

– هُوَ لَمْ يَقْصِدْ أحَدًا مِنْهُم.

– كَمْ يَبْلُغُ ابْنُكَ مِنَ العُمْر؟

– ثَمانِيَةَ عَشَرَ عامًا.

– هَلْ بِإمْكانِكَ أنْ تُخْبِرَنا عَنْهُ المَزيد؟

– هُوَ شابٌّ هادِئٌ، لا يُحِبُّ الخُروجَ كَثيرًا مِنَ المَنْزِل، ولا يَرْغَبُ في الكَلام. يَهْوى الألْعابَ الإلِكْتِرونِيَّةَ ويُمْضي ساعاتٍ طَويلَةً أمامَ الكُمْبيوتر أوِ الهاتِفِ المَحْمول، يُمارِسُ هَذِهِ الألْعابَ بِشَغَفٍ وافْتِتانٍ...

– هَلْ لَدَيْكَ صورَةٌ لِابْنِكَ؟

– طَبْعًا تَفَضَّل. أرْجوكَ سَيِّدي، هَلْ لَدَيْكَ خَبَرٌ ما؟

– لا حَتّى الآن، لَكِنَّنا سَنَعْمَلُ جاهِدينَ لِلبَحْثِ عَنْهُ وطَمْأنَتِكَ في وَقْتٍ قَريبٍ.

كانَ «رَيان» في تِلْكَ الغُرْفَةِ المُظْلِمَةِ الَّتي لَمْ يُلامِسْها نورُ الشَّمْسِ ولَمْ يَحْتَضِنْها دِفْءُ أشِعَّتِها، ما بَرِحَ مُتَسَمِّرًا عَلى كُرْسِيِّه، عَيْناهُ تَبْتَلِعانِ الشّاشَة، ويَداهُ تَنْتَقِلانِ بِحَرَكَةٍ ثابِتَةٍ عَلى لَوْحَةِ المَفاتيحِ أمامَه، فيما شَفَتاهُ تَتَفَوَّهانِ بِبَعْضِ كَلِماتٍ غَيْرِ مَفْهومَةٍ: «سَأصِل، لَنْ أتْرُكَ المَكانَ قَبْلَ أنْ أُحَقِّقَ مُبْتَغاي!».

دَخَلَ «وَسيم» يَسْأَلُهُ إذا كانَ يُريدُ أمْرًا، لَكِنَّهُ ما الْتَفَتَ إلَيْهِ وما رَدَّ عَلَيْه. فَقَفَلَ راجِعًا مُغْلِقًا البابَ خَلْفَه.

واسْتَمَرَّ «رَيان» في ما هُوَ فيه. آذَنَتِ الشَّمْس، مِنْ جَديدٍ، بِالمَغيب، فَازْدادَتْ بُرودَةُ الغُرْفَةِ وتَضاعَفَتْ عَتْمَتُها. و«رَيان» عَلى كُرْسِيِّهِ وقَدْ غابَ عَنْهُ الزَّمانُ والمَكان، يُتَمْتِمُ جُمْلَتَهُ المَعْهودَةَ بِبَلادَةِ مَنْ يُحْتَضَرُ ويُفارِقُ الحَياة: «سَأصِل، سَأُحَقِّقُ مُبْتَغاي! هِيَ ساعاتٌ قَليلَةٌ تَفْصِلُني عَنِ المُراد! قَريبًا أُنْهي المَرْحَلَةَ الأخيرَة!».

ومَرَّتِ السّاعات، وانْتَهى لَيْلٌ لِيَبْدَأَ نَهارٌ، والمُرادُ لَمْ يَتَحَقَّق، فيما كانَتِ المَرْحَلَةُ الأخيرَةُ تَتَحَوَّل، كُلَّ مَرَّةٍ،

إلى مَرْحَلَةٍ أولى، لِيَبْدَأَ المُشْوارُ مِنْ جَديدٍ، ويَدا «رَيان» عَلى المَفاتيحِ تَخْفُقُ بِاضْطِرابٍ، فيما عَيْناهُ تَلْتَهِمانِ الصُّوَرَ أمامَهُ والأرْقامَ والأشْكال...

ويُطِلُّ «وَسيم» مِنْ بابِ الغُرْفَةِ المُوارِبِ، يَسْألُ كَما في السّابِق: «أتُريدُ شَيْئًا يا صَديقي؟ ألا تُريدُ أنْ تَأْكُل؟ ألا تُريدُ الذَّهابَ إلى المُسْتَشْفى؟». ولا يَأْتيهِ الجَوابُ كَما في السّابِقِ أيْضًا، فَيَعودُ أدْراجَهُ مُتَّجِهًا مِنْ جَديدٍ إلى غُرْفَتِه، وقَهْقَهَةٌ مُزَلْزِلَةٌ تَتَدَحْرَجُ مِنْ فَمِهِه، تُزاحِمُها كَلِماتُ شَماتَةٍ ساخِرَةٍ: «ما هَذا التَّحَوُّلُ الكَبير، يا رَيان؟ عَلَّمْناكَ عَلى الشِّحاذَة،

فَسَبَقْتَنا إلى الأبْواب!

اِفْعَلْ ما يَحْلو لَكَ».

رَنَّ هاتِفُ «فَريد»، فَتَرَكَ غُرْفَةَ «ميرا»، واتَّجَهَ مُسْرِعًا إلى الرِّواقِ حَيْثُ أجابَ المُتَّصِلُ قائِلًا: «نَعَمْ سَيِّدي الضّابِط، هَلْ لَدَيْكَ جَديدٌ تُعْلِمُني بِه؟».

– لِلأسَفِ يا سَيِّدَ «فَريد»، ما زالَ رِجالُنا يَبْحَثون، لَكِنَّنا لَمْ نَتَوَصَّلْ حَتّى الآنَ إلى نَتيجَةٍ.

– أرْجوكَ حَضْرَةَ الضّابِطِ إنَّهُ ابْني.

– لا تَقْلَق. سَنَعْثُرُ عَلَيْهِ قَريبًا.

هَمَّ «فَريد» في العَوْدَةِ إلى الغُرْفَة، فَتَفاجَأَ بِزَوْجَتِهِ وقَدْ أضْحَتْ قُرْبَهُ تَجُرُّ خَلْفَها عَمودًا عُلِّقَتْ عَلَيْهِ أنابيبُ المَصْلِ والأدْوِيَة: «هَلْ ما سَمِعْتُهُ صَحيحٌ يا فَريد؟! هَلْ كُنْتَ تَتَكَلَّمُ عَلى ابْنِنا؟ ما بِهِ رَيان يا فَريد؟».

أمّا «فَريد» فَأنْكَرَ قائِلًا لَها: «لا، لا، أنْتِ مُخْطِئَةٌ أنا لَمْ آتِ عَلى ذِكْرِ رَيان. هَيّا عودي إلى غُرْفَتِكِ واسْتَريحي في السَّرير».

ومَعَ أنَّهُ حاوَلَ جاهِدًا تَكْذيبَ ظُنونِ «ميرا»، والتَّظاهُرَ أمامَها بِأنَّ لا خَطَرَ أوْ ما يُقْلِقُ البال، إلّا أنَّ دُموعَهُ فَضَحَتْه، فَانْفَجَرَ أمامَها باكِيًا مُتَلَعْثِمًا بِكَلِماتٍ مُرْتَعِشَةٍ خائِفَةٍ: «ميرا، لَقَدْ كَذَبْتُ مُنْذُ حينٍ. رَيان في خَطَرٍ يا ميرا، وقَدْ يَكونُ مَصيرُهُ مَجْهولًا. ومَنْ كُنْتُ أُكَلِّمُهُ هُوَ ضابِطُ الشُّرْطَة، و...».

لَمْ يَسْتَطِعْ «فَريد» إكْمالَ كَلامِه، لِأنَّ «ميرا» كانَتْ قَدْ سَحَبَتِ الإبْرَةَ المَغْروزَةَ في يَدِها، بِحَرَكَةٍ وَقَّعَتْها الصَّدْمَة، وقامَتْ مِنْ فِراشِها تَصْرُخُ وتَسْتَغيث...

وبِصُعوبَةٍ تَمَكَّنَ «فَريد»، بِمُساعَدَةِ بَعْضِ المُمَرِّضاتِ مِنْ إعادَتِها إلى فِراشِها وإيقافِ نَزيفِ يَدِها الَّذي راحَتْ دِماؤُهُ تُسابِقُ الدُّموعَ المُنْحَدِرَةَ مِنْ عَيْنَيْها!

أمْضى «فَريد» اللَّيْلَ مُسْتَيْقِظًا قُرْبَ زَوْجَتِه، يُحاوِلُ تَهْدِئَتَها وطَمْأنَتَها بِأنَّ «رَيان» سَيَعود، وبِأنَّهُ حَتْمًا بِخَيْرٍ، مَعَ أنَّهُ كانَ بِأمَسِّ الحاجَةِ إلى مَنْ يُهَدِّئُ رَوْعَه، ويُنْزِلُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ثِقْلًا ما عادَ قادِرًا عَلى حَمْلِه...

غَلَّفَتْ أشِعَّةُ شَمْسِ نَهارٍ جَديدٍ الشّارِعَ الرَّئيسَ في المَدينَة، لَكِنَّها لَمْ تَدْخُل إلى تِلْكَ الغُرْفَةِ الرّاتِعَةِ في قَعْرِ مَنْزِلِ «وَسيم»، ولا إلى ذاكَ الجَسَدِ المَرْمِيِّ عَلى الكُرْسِيِّ فيها.

اسْتَفاقَ «وَسيم» مِنْ نَوْمِه، لَكِنَّهُ ظَلَّ مُلازِمًا الفِراشَ يُقَلِّبُ جَسَدَهُ المُتَيَبِّسَ فيه، عَلَّهُ يُريحُ أوْصالَهُ مِنْ خَدَرِ جُلوسِهِ لِوَقْتٍ طَويلٍ أمامَ الـ«كُمْبيوتر». حاوَلَ أنْ يُنادِيَ «رَيان»، لَكِنَّ الأَخيرَ لَمْ يَرُدّ. فَسَحَبَ جَسَدَهُ المُنْهَكَ وراحَ يَجُرُّ خُطاهُ نَحْوَ غُرْفَةِ رَفيقِه، وهُوَ يُتَمْتِم: «ما بِه؟ لِمَ لا يَرُدّ؟ أيُعْقَلُ أنْ يَكونَ هَذا المَجْنونُ مُسْتَمِرًّا في اللَّعِب، أمْ هُوَ يَغُطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ بَعْدَ ساعاتٍ مِنَ اللَّعِبِ المُنهِك؟!».

ولَمْ يَطُلِ الوَقْتُ حَتّى انْتَصَبَتِ الإجابَةُ أمامَ ناظِرَيْ «وَسيم» بِفجاجَةٍ أرْبَكَتْهُ وزادَتْ يَباسَ جَسَدِه. «رَيان» عَلى الكُرْسِيِّ فيما رَأْسُهُ يُعانِقُ لَوْحَةَ المَفاتيح، ويَداهُ مُتَدَلِّيَتانِ إلى أسْفَل. اقْتَرَبَ مِنْه، وقَدْ شَعَرَ بِأنَّ الأمْرَ فيهِ رَيْبَةٌ. كَلَّمَه، فَما رَدَّ عَلَيْه. حاوَلَ أنْ يُحَرِّكَه، لَكِنَّهُ لَمْ

يَتَحَرَّك، نَظَرَ إلى وَجْهِهِ فَوَجَدَهُ شاحِبًا هَزيلًا، فيما عَيْناهُ غائِرَتان، وفَمُهُ مُطْبِقٌ نِصْفَ إطْباقَةٍ يَطوفُ زَبَدُ اللُّعابِ مِنْهُ راسِمًا دَوائِرَ دَوائِرَ فَوْقَ مَفاتيحِ الـ«كُمْبيوتر»... هالَ المَنْظَرُ «وَسيم» وتَيَقَّنَ مِنْ أنَّ أمْرًا سَيِّئًا وخَطِرًا قَدْ حَصلَ لِرَفيقِه، فَتَرَكَهُ وهَرَعَ مُسْرِعًا إلى الخارجِ يَصْرُخُ طالِبًا النَّجْدَة.

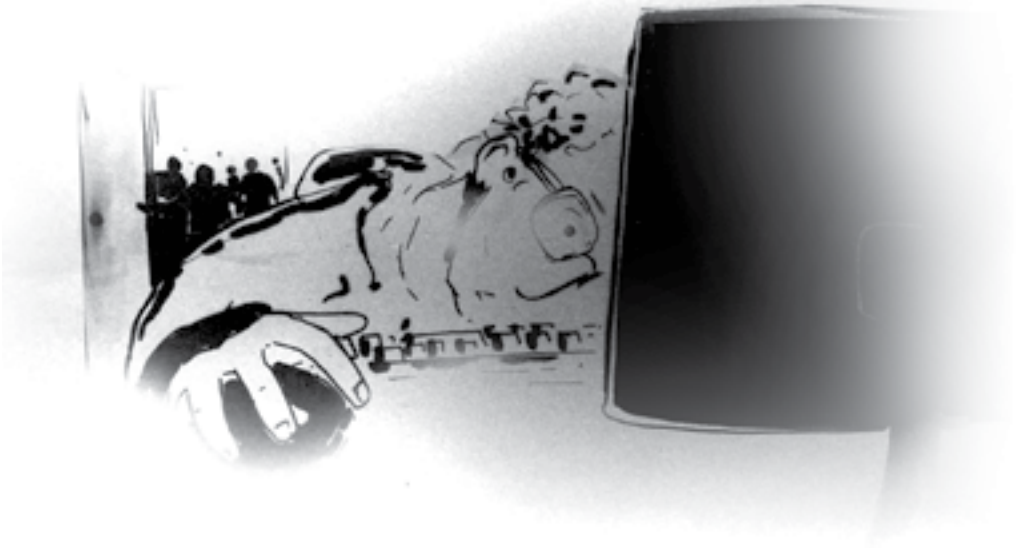

ما حَصَلَ لِـ «رَيان» قَلَبَ المَبْنى رَأْسًا عَلى عَقِبٍ... لَمْ يَبْقَ أحَدٌ مِنَ السُّكَانِ في مَكانِه، الجَميعُ تَجَمَّعَ قُرْبَ بابِ الغُرْفَة، يَوَدُّ رُؤْيَةَ المَنْظَرِ بِأُمِّ العَيْن، فيما رِجالُ الإسْعافِ عَمِلوا جاهِدينَ عَلى إبْعادِهِم، وقَدْ خَطَّ الحُزْنُ عَلى وُجوهِهِم مَلامِحَ قاتِمَةً لا تُبَشِّرُ بِخَيْرٍ...

في ذاكَ اليَوْم، لَمْ تَرْتَحْ رُدْهَةُ الاسْتِقْبالِ في المَبْنى ولا دَرَجاتُهُ مِنْ أسْئلَةٍ كَثيرَةٍ، وتَخْميناتٍ أكْثَر، راحَتْ تُرْمى هُنا وهُناك، وتَتْرُكُ في المَكانِ مَزيدًا مِنْ أجْواءِ التَّوَتُّرِ والقَلَق:

«ما الَّذي أصابَ هَذا الفَتى؟».

– تُراهُ تَعَرَّضَ لِأذِيَّةٍ ما؟

– أظُنُّ أنَّ جَسَدَهُ لَمْ يَحْتَمِلْ هَذِهِ السّاعاتِ الطَّويلَةَ مِنَ الجُلوسِ أمامَ الـ«كُمْبيوتر»! طالَما هُوَ عِنْدَ «وَسيم»، فَلا بُدَّ مِنْ أنْ يَكونَ مِثْلَه!

– لَقَدْ رَأيْتُهُ يَدْخُلُ المَبْنى مُنْذُ يَوْمَيْن...

وما مَرَّتْ لَحظاتٌ، حَتّى أسْكَتَ صَوْتُ صَفّارَةِ سَيّارَةِ الإسْعافِ الكَلامَ كُلَّهُ الَّذي راحَ يَتَكَوَّمُ في الزَّوايا، وهُنا وهُناك. أقَلَّتِ السَّيّارَةُ «رَيان» إلى المُسْتَشْفى، فيما بَذَلَ المُسْعِفونَ كُلَّ جُهْدٍ، عَلَّهُم يُنْقِذونَهُ ويُعيدونَ الحَياةَ لِتَدُبَّ في جَسَدِهِ الَّذي ما تَجاوَبَ مَعَ إسْعافاتِهِم.

امْتَزَجَ صَوْتُ بوقِ سَيّارَةِ الإسْعافِ الَّتي اقْتَحَمَتْ مَدْخَلَ مُسْتَشْفى المَدينَةِ بِرَنينِ هاتِفِ «فَريد»، وبِصَوْتِ «ميرا» الَّتي سارَعَتْ تَقول: «هَيّا يا فَريد، رُدَّ بِسُرْعَةٍ».

وبِسُرْعَةٍ أيْضًا هَبَطَ «فَريد» سَلالِمَ المُسْتَشْفى، غَيْرَ مُصَدِّقٍ أنَّ ابْنَهُ قَدْ نُقِلَ حالًا إلَيْها.

مَرَّتْ دَقائِق، وإذا بِالطَّبيبِ يَخْرُجُ مِنْ غُرْفَةِ العَمَلِيّات، وقَدِ اتَّشَحَ وَجْهُهُ بِالسَّواد: «أنا آسِفٌ سَيِّدي. لَمْ نَسْتَطِعْ إنْقاذَه. لَقَدْ أُصيبَ بِنَوْبَةٍ قَلْبِيَّةٍ نَتيجَةَ تَجَلُّطٍ دَمَوِيٍّ وتَصَلُّبٍ في الشَّرايين».

– تَجَلُّطٌ دَمَوِيٌّ؟ في هَذا العُمْر؟! لَكِن، لِماذا؟

– ما أبْلَغَني بِهِ المُسْعِفونَ أنَّهُ بَقِيَ لِأرْبَعينَ ساعَةٍ مِنْ دونِ طَعامٍ أوْ شَرابٍ أوْ حَراكٍ أمامَ الـ«كُمْبيوتر»، و...

وأكْمَلَ الطَّبيبُ شَرْحَه، لَكِنَّ «فَريد» لَمْ يَعُدْ يَسْمَعُه، إذْ ضَجَّ كِيانُهُ بِسُؤالٍ واحِدٍ وَحيدٍ: «لِماذا يا رَيان، لِماذا سَمَحْتَ لِرَغْبَتِكَ المَجْنونَةِ بِأنْ تَقْتُلَكَ وتَقْتُلَنا؟».

وظَلَّ يَسْألُ ويَسْألُ ويُعيد... لَكِن، مِنْ أيْنَ الإجابَة، وما مِنْ مُجيبٍ؟